سلسلة الأعلام

التابعون

تأليف: محمد عبد الظاهر المطارقى

رسوم: الشريف حسين

جرافيك: سارة محمد سمير



١١ شارع الطوبجى - بين السرايات - الجيزة

تليفاكس: ٧٤٩٣٦٨٥

Site : www.ynabeea.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا
مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم
مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن
يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا
تَبْدِيلًا﴾

التَّـابعـون

التَّابِعُونَ هُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا الصَّحَابَةَ وَأَخَذُوا عَنْهُمُ الْعِلْمَ، وَلَمْ يَرَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ . وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ فَضْلٌ وَمَنْزِلَةٌ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ. لِمَ لا ؛ وَقَدْ زَكَّاهُمُ الْقُرْآنُ، فَقَالَ تَعَالَى: وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [التَّوْبَة: ١٠٠].

وَالتَّابِعُونَ هُمْ أَفْضَلُ الأُمَّةِ بَعْدَ الصَّحَابَةِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ....»

وَتَتَفَاوَتُ مَنْزِلَةُ التَّابِعِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَقَدْ ارْتَقَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُرْتَقًى صَعْبًا، وَاعْتَلَى قِمَّةً سَامِقَةً فِي جَانِبٍ مِنَ الْجَوَانِبِ، فَتَمَيَّزَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَيْزَةٍ لَمْ يَتَمَيَّزْ بِهَا صَاحِبُهُ، فَهَذَا قَدْ ارْتَقَى فِي قِمَّةِ الإِخْلاصِ لِلهِ سُبْحَانَهُ، وَآخَرُ فِي مِعْرَاجِ الْخَوْفِ، وَثَالِثٌ فِي مِصْعَدِ الرِّضَا وَالاسْتِسْلامِ، وَرَابِعٌ فِي سُلَّمِ الْيَقِينِ وَالثِّقَةِ، وَخَامِسٌ فِي الْعِلْمِ.. إِلَخ.

وَفِي هَذَا الْكِتَابِ سِيْرَةٌ لِخَمْسٍ مِنَ التَّابِعِينَ؛ كَانَ لِكُلِّ وَاحِدٍ فِيهِمْ مَوَاقِفُ سَجَّلَهَا التَّارِيخُ بِأَحْرُفٍ مِنْ نُورٍ، وَكَانُوا أَئِمَّةَ الْهُدَى بَعْدَ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ.

شيخ التابعين
سعيد بن المسيّب

كُلُّ الأَسْبَابِ كَانَتْ مُهَيَّأَةً لأَنْ يُصْبِحَ سَعِيْدُ بنُ المُسَيّبِ سَيِّدَ التَّابِعِيْنَ، وَرَأْسَ الفُقَهَاءِ فِي زَمَانِهِ؛ فَقَدْ وُلِدَ بَيْنَ كِبَارِ الصّحَابَةِ، وَتَلَقَّتْهُ الأَيَادِي بِالرِّعَايَةِ وَالاهْتِمَامِ، لِمَا وَجَدُوا فِيْهِ مِنْ أَلْمَعِيَّةٍ وَذَكَاءٍ حَادٍّ، وَهِمَّةٍ عَالِيَةٍ فِي طَلَبِ العِلْمِ، وَذَاكِرَةٍ قَوِيَّةٍ فِي الحِفْظِ.

وَمِنْ حُسْنِ الطَّالِعِ أَنَّهُ وُلِدَ بِالمَدِيْنَةِ المُنَوَّرَةِ، بَعْدَ أَنْ تَوَلَّى الفَارُوقُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه أُمُورَ الخِلافَةِ بِسَنَتَيْنِ فَقَطْ، لِذَا فَقَدْ رَأَى أَكَابِرَ الصَّحَابَةِ، وَمِنْهُم: الفَارُوقُ عُمَرُ، وَعُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ، وَعَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، وَزَيْدُ بنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو مُوْسَى الأَشْعَرِيُّ، وَغَيْرُهُمْ، فَكَانَ- بِرَغْمِ صِغَرِ سِنِّهِ- يَمْتَلِكُ مَقْدِرَةً عَالِيَةً عَلَى الحِفْظِ، حَتَّى صَارَ- بِالفِعْلِ- سَيِّدَ فُقَهَاءِ عَصْرِهِ، وَشَيْخَ التَّابِعِيْنَ.

وَلَعَلَّ زَوَاجَهُ المُبَكِّرَ بِابْنَةِ الصّحَابِيِّ الجَلِيْلِ "أَبِي هُرَيْرَةَ الدَّوْسِيِّ"، رَاوِيَةِ الإِسْلامِ، وَصَاحِبِ أَكْبَرِ رَصِيْدٍ مِنْ أَحَادِيْثِ النّبِيِّ ﷺ كَانَ لَهُ أَبْلَغُ الأَثَرِ فِي امْتِلاكِهِ القُدْرَةَ عَلَى فَهْمِ الشَّرِيْعَةِ الغَرَّاءِ، بِالأَدِلَّةِ الصّحِيْحَةِ التِي وَرَدَتْ عَنِ النّبِيِّ المَعْصُومِ ﷺ.

وَالتّابِعِيُّ الجَلِيْلُ سَعِيْدُ بنُ المسَيّبِ كَانَتْ لَهُ القُدْرَةُ عَلَى اسْتِنبَاطِ الأَحْكَامِ الفِقْهِيَّةِ، وَهُوَ مَا شَهِدَ لَهُ بِهِ الصّحَابِيُّ الجَلِيْلُ "عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ"- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- إِذَا سُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ صَعْبَةٍ فِي الفِقْهِ يَقُولُ: "سَلُوا سَعِيْدًا؛ فَقَدْ جَالَسَ الصَّالِحِيْنَ"، وَهَذَا مِنْ قِمَّةِ تَوَاضُعِ عَبْدِ اللهِ، فَهُوَ أَحَدُ الذِيْنَ اقْتَفَوا.



أَثَرَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَشَى عَلَى هُدَاهُ القَدَمَ تِلْوَ القَدَمِ، وَيَكْفِي أَنَّهُ تَمَتَّعَ بِرُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَهُ مَنَاقِبُ عَظِيْمَةٌ، يَقُولُ قَتَادَةُ: "مَا رَأَيْتُ أَحَدًا قَطّ أَعْلَمَ بِالحَلالِ وَالحَرَامِ مِنْهُ"، أَي: مِنْ ابنِ المسيَّبِ.

وَبِرَغْمِ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ سَعِيدُ بنُ المُسَيّبِ فِي العِلْمِ وَأُمُورِ الفِقْهِ، إلا أَنَّهُ لَمْ يَنْشغِلْ لَحْظَةً وَاحِدَةً عَنْ شُكْرِ اللهِ - المنْعِمِ - الذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِتِلْكَ النِّعَمِ الجَلِيْلَةِ، فَلَمْ يُفَرِّطْ قَطّ فِي الوَاجِبَاتِ المَفْرُوضَةِ، فَضْلاً عَنِ السُّنَنِ وَالنَّوَافِلِ.

وَقَدْ عُرِفَ عَنْهُ شِدَّةُ التِزَامِهِ وَحِرْصِهِ الشّدِيْدِ عَلَى مُلازَمَةِ المَسْجِدِ فِي جَمِيْعِ أَوْقَاتِ الصَّلاةِ، فَلَمْ يُرَ قطّ إلا بَيْنَ بَيْتِهِ وَالمَسْجِدِ.

وَهُوَ بِجَانِبِ عِلْمِهِ الوَاسِعِ، وَكَثْرَةِ تَعَبُّدِهِ وَتَبَتُّلِهِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، اشْتُهِرَ أَيْضًا بِالقَنَاعَةِ، وَالزُّهْدِ، وَشِدَّةِ الوَرَعِ، حَتَّى أَنَّ الدُّنْيَا بِمَتَاعِهَا أَتَتْهُ تَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ، بَلْ وَتَرْجُوهُ أَنْ يَمُدَّ يَدَيْهِ وَيَتَلَقَّفَهَا، إلا أَنَّهُ - بِكُلِّ إِبَاءٍ وَشُمُوخِ الرَّجُلِ المُؤْمِنِ - أَعْرَضَ عَنْهَا، وَدَفَعَهَا بِقَدَمَيْهِ، قَائِلاً لَهَا: سُحْقًا، سُحْقًا! إِلَيْكِ عَنِّي.. لَسْتُ بِالذِي يَغْتَرُّ بِكِ، أَوْ يَقَعُ فِي شِبَاكِكِ.

وَكَان مَوْقِفُهُ الشَّهِيْرُ مِنَ الخَلِيْفَةِ الأُمَوِيِّ "عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوَانَ" خَيْرَ شَاهِدٍ عَلَى ذَلِكَ، وَالذِي يُعَدُّ فِي عَصْرِهِ مِنْ أَعْظَمِ مُلُوكِ الأَرْضِ، وَلا غَرْوَ! فَقَدْ دَانَتْ لَهُ مُلُوكُ الأَعَاجِمِ، وَخَضَعَتْ لَهُ الرِّقَابُ، حِيْنَ تَقَدَّمَ يَطْلُبُ ابْنَةَ سَعِيْدِ بنِ المُسَيّبِ لابْنِهِ وَوَلِيِّ عَهْدِهِ مِنْ بَعْدِهِ، "الوَلِيْدِ بنِ عَبْدِ المَلِكِ"، لِيَتَزَوَّجَهَا؛ لِمَا كَانَتْ تَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ الجَمَالِ البَاهِرِ، وَشِدَّةِ الذَّكَاءِ.

وَكَانَ ذَلِكَ مِنَ الأُمُورِ التِي تَدْعُو للسَّعَادَةِ وَالفَخْرِ، لَكِنَّ المُفَاجَأَةَ التِي أَثَارَتِ الدَّهْشَةَ، وَعَقَدَتِ الأَلْسِنَةَ، هِيَ رَفْضُ سَعِيْدٍ لَهُ، حَتَّى ذَاعَ الخَبَرُ وَشَاعَ بَيْنَ النَّاسِ فِي المَدِيْنَةِ وَمَا حَوْلَهَا:

"ابنُ المُسَيّبِ يَرْفُضُ تَزْوِيجَ ابْنَتِهِ مِنَ الوَلِيْدِ"!! يَا إِلَهِي! كَيْفَ ذَلِكَ؟! شَيءٌ فِي غَايَةِ العَجَبِ!

وَصَارَتْ عَلامَاتُ الاسْتِفْهَامِ تَرْتَسِمُ عَلَى مُعْظَمِ الوجُوهِ. وَالذِي أَثَارَ دَهْشَتَهُمْ وَفُضُولَهُمْ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ، وَجَعَلَهُمْ يَضْرِبُونَ أَخْمَاسًا فِي أَسْدَاسٍ، هُوَ إِعْرَاضُ سَعِيْدٍ عَنِ المَالِ وَالجَاهِ وَالسُّلْطَانِ، لِيُزَوِّجَ ابْنَتَهُ مِنْ رَجُلٍ فَقِيْرٍ لا يَمْلِكُ قُوْتَ يَوْمِهِ.



وَلْنَعْرِفْ أَوَّلاً قِصَّةَ زَوَاجِ ابْنَةِ سَعِيْدٍ مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الفَقِيْرِ الذِي يُدْعَى "عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي وَدَاعَةَ".

هَا هِيَ القِصَّةُ يَرْوِيْهَا لَكُمْ بِنَفْسِهِ ابنُ أَبِي وَدَاعَةَ.يَقُولُ:

"كُنْتُ أُلازِمُ مَسْجِدَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ طَلَبًا لِلْعِلْمِ، وَكُنْتُ أُدَاوِمُ عَلَى حَلَقَةِ سَعِيْدِ بنِ المُسَيِّبِ، وَأُزَاحِمُ النَّاسَ عَلَيْهَا بِالمَنَاكِبِ، فَتَغَيَّبْتُ عَنْ مَجْلِسِ الشَّيْخِ أَيَّامًا، فَتَفَقَّدَنِي، وَظَنَّ أَنَّ بِي مَرَضًا، أَوْ عَرَضَ لِي عَارِضٌ؛ فَسَأَلَ عَنِّي مَنْ حَوْلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ خَبَرًا، فَلَمَّا عُدتُ إِلَيْهِ بَعْدَ أَيَّامٍ حَيَّانِي، وَرَحَّبَ بِي أَيَّمَا تَرْحِيْبٍ، وَقَالَ لِي: أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا وَدَاعَةَ؟ فَقُلْتُ: تُوفِّيَتْ زَوْجَتِي، فَاشْتَغَلْتُ بِأَمْرِهَا، فَقَالَ: هَلاَّ أَخْبَرْتَنَا يَا أَبَا وَدَاعَةَ فَنُوَاسِيَكَ، وَنَشْهَدَ جِنَازَتَهَا مَعَكَ، وَنُعِيْنَكَ عَلَى مَا أَنْتَ فِيْهِ؟ فَقُلْتُ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، وَهَمَمْتُ أَنْ أَقُوْمَ. فَاسْتَبْقَانِي حَتَّى انْصَرَفَ جَمِيْعُ مَنْ كَانَ فِي المَجْلِسِ، ثُمَّ قَالَ لِي: أَمَا فَكَّرْتَ فِي اسْتِحْدَاثِ زَوْجَةٍ لَكَ يَا أَبَا وَدَاعَةَ؟

فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، وَمَنْ يُزَوِّجُنِي ابْنَتَهُ وَأَنَا شَابٌّ نَشَأَ يَتِيْمًا، وَعَاشَ فَقِيْرًا؟! فَأَنَا لا أَمْلِكُ غَيْرَ دِرْهَمَيْنِ أَوْ ثَلاثَةِ دَرَاهِمَ.

فَقَالَ: أَنَا أُزَوِّجُكَ ابْنَتِي. فَقُلْتُ: أَنْتَ؟! أَتُزَوِّجُنِي ابْنَتَكَ بَعْدَ أَنْ عَرَفْتَ مِنْ أَمْرِي مَا عَرَفْتَ؟! فَقَالَ: نَعَمْ؛ فَنَحْنُ إِذَا جَاءَنَا مَنْ نَرْضَى دِيْنَهُ وَخُلُقَهُ زَوَّجْنَاهُ، وَأَنْتَ عِنْدَنَا مَرْضِيُّ الدِّيْنِ وَالخُلُقِ.

وَعَقَدَ لِي عَلَى ابْنَتِهِ، ثُمَّ قَصَدتُ بَيْتِي، وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ صَائِمًا، فَنَسِيْتُ صَوْمِي، وَجَعَلْتُ أَقُوْلُ: وَيْحَكَ يَا أَبَا وَدَاعَةَ، مَا الذِي صَنَعْتَ بِنَفْسِكَ؟! مِمَّنْ تَسْتَدِيْنُ؟ وَمِمَّنْ تَطْلُبُ المَالَ؟ وَظَلَلْتُ عَلَى حَالِي هَذِهِ حَتَّى أُذِّنَ لِلمَغْرِبِ، فَأَدَّيْتُ المَكْتُوْبَةَ، وَجَلَسْتُ إِلَى فُطُورِي، وَكَانَ خُبْزًا وَزَيْتًا، فَمَا أَنْ تَنَاوَلْتُ مِنْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ حَتَّى سَمِعْتُ البَابَ يُقْرَعُ.



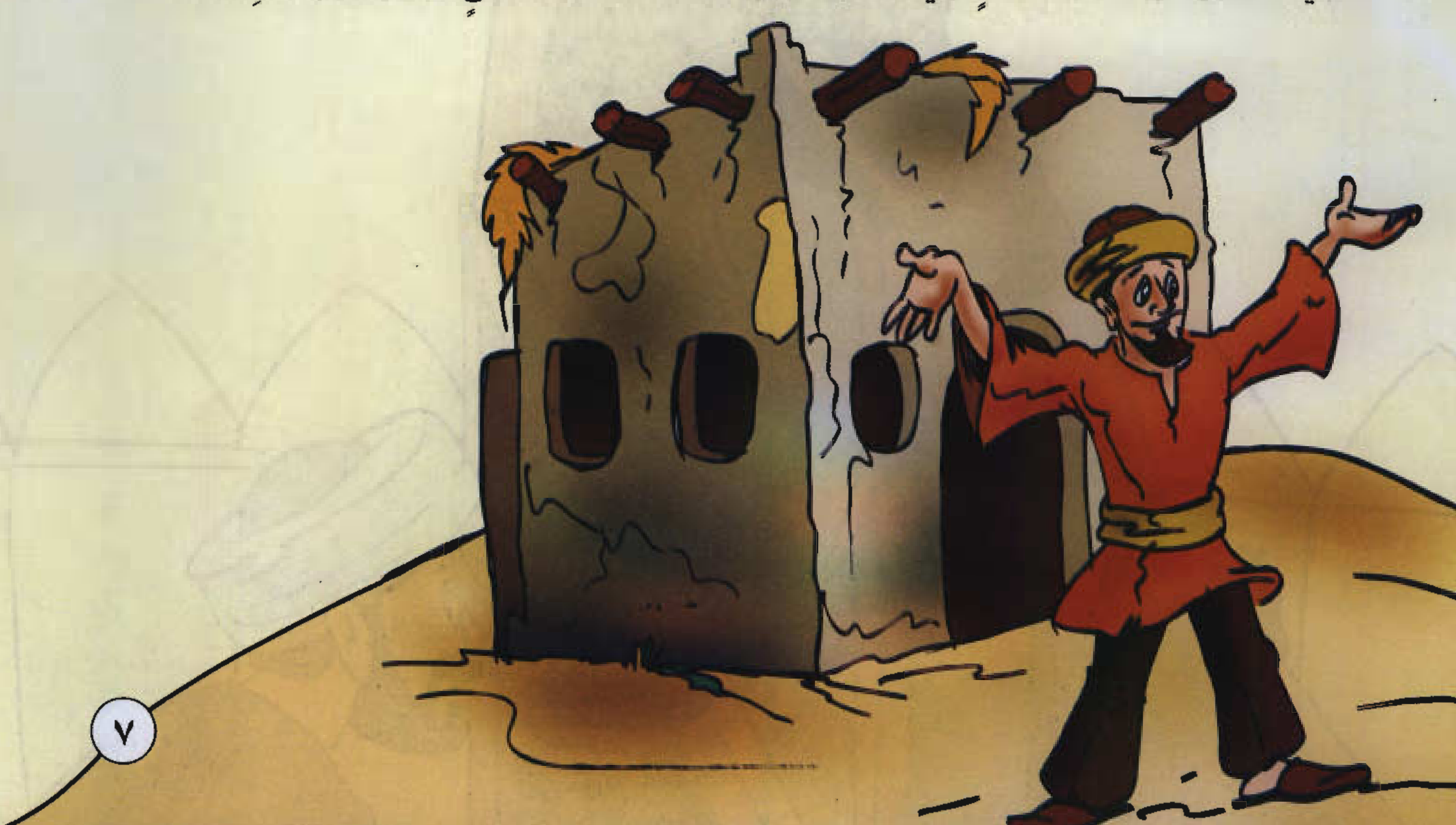
فَقُلْتُ: مَنِ الطَّارِقُ. فَقَالَ: سَعِيْدٌ! فَوَاللهِ، لَقَدْ مَرَّ بِخَاطِرِي كُلُّ إِنْسَانٍ اسْمُهُ سَعِيْدٌ أَعْرِفُهُ، إلا سَعِيْدَ بْنَ الْمُسَيّبِ؛ فَفَتَحْتُ البَابَ، فَإِذَا بِي أَمَامَ سَعِيْدِ بنِ الْمُسَيّبِ، فَقَالَ: إِنَّ ابْنَتِي أَصْبَحَتْ زَوْجَةً لَكَ بِشَرْعِ اللهِ مُنْذُ الغَدَاةِ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ مَعَكَ أَحَدٌ يُؤْنِسُ وَحْشَتَكَ، فَكَرِهْتُ أَنْ تَبِيْتَ أَنْتَ فِي مَكَانٍ وَزَوْجَتُكَ فِي مَكَانٍ آخَرَ، فَجِئْتُكَ بِهَا. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهَا فَدَفَعَهَا فِي البَابِ، وَرَدَّ البَابَ، ثُمَّ أَسْرَعْتُ إِلَى أُمِّي لأُعْلِمَهَا الخَبَرَ، فَلَمَّا جَاءَتْ قَالَتْ: وَجْهِي مِنْ وَجْهِكَ حَرَامٌ إِنْ مَسَسْتَهَا قَبْلَ أَنْ أُصْلِحَهَا وَأُزَيِّنَهَا لَكَ.

وَانْتَظَرْتُ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ دَخَلْتُ بِهَا، فَإِذَا هِيَ مِنْ أَجْمَلِ النَّاسِ، وَأَحْفَظِ النَّاسِ لِكِتَابِ اللهِ، وَأَعْلَمِهِمْ بِسُنَّةِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَأَعْرَفِهِمْ بِحَقِّ الزَّوْجِ،

لَقَدْ كَانَ سَعِيْدُ بنُ الْمُسَيّبِ يَرْجُو لابْنَتِهِ الخَيْرَ، فَجَعَلَ أَمْرَ دِيْنِهَا مُقَدَّمًا عَلَى مَا سِوَاهُ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا الفَانِي.

وَلَعَلَّ سَعِيْدَ بنَ الْمُسَيّبِ لَهُ مَوَاقِفُ كَثِيْرَةٌ مَعَ الخَلِيْفَةِ الأُمَوِيِّ، أَظْهَرَتْ شَجَاعَتَهُ وَقُوَّتَهُ، وَالتِي هِيَ مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ إِيْمَانِهِ العَمِيْقِ الْمُتَغَلْغِلِ فِي أَعْمَاقِ قَلْبِهِ. وَلَقَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ الخَلِيْفَةُ "عَبْدُ الْمَلِكِ بنُ مَروَانَ" يَوْمًا حَاجِبَهُ لِيَأْتِيَ بِهِ إِلَى القَصْرِ؛ لِيُجَالِسَهُ، وَيُلْقِي عَلَى مَسَامِعِهِ بَعْضَ الْمَوَاعِظِ، فَأَبَى وَقَالَ بِشُمُوخِ العَالِمِ الوَاثِقِ بِرَبِّهِ: العِلْمُ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَلا يَأْتِي لأَحَدٍ.

رَحِمَ اللهُ "سَعِيْدَ بنَ الْمُسَيّبِ"، فَقَدْ أُوذِيَ فِي اللهِ كَثِيرًا مِنْ أَجْلِ مَوَاقِفِهِ الصُّلْبَةِ الجَرِيْئَةِ، وَالتِي كَانَ يُطْلِقُهَا دُوْنَ وَجَلٍ فِي وُجُوهِ الْمُلُوكِ، حَتَّى مَاتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَتِسْعِيْنَ مِنَ الهِجْرَةِ.



العالم الشهيد
سعيد بن جبير

سَعِيْدُ بنُ جُبَيْرٍ أَسْوَدَ البَشْرَةِ؛ لَكِنَّهُ كَانَ يَتَلألأُ بِنُورِ الإِيْمَانِ، فَلا يَمَلُّ المَرْءُ مِنَ النّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ المُشْرِقِ. هُوَ نَفْسُهُ لَمْ يَكُنْ يَعْنِيْهِ سَوَادُ لَوْنِهِ، أَوْ فَلْفَلَةُ شَعْرِهِ، وَلَمْ يَكُنْ يَهْتَمُّ بِكَوْنِهِ مِنْ أَصْلٍ حَبَشِيٍّ، وَلا يُؤَرِّقُهُ ذَلِكَ عَلَى الإِطْلاقِ، أَمَّا الذِي كَانَ يَشْغَلُهُ بِالفِعْلِ، هُوَ شِدَّةُ اهْتِمَامِهِ بِطَلَبِ العِلْمِ، وَهَذَا مَا دَفَعَ بِهِ لأَنْ يَجْلِسَ بَيْنَ أَيْدِي العُلَمَاءِ، يُنْصِتُ إِلَيْهِمْ فِي شَغَفٍ، وَيُسَجِّلُ كُلَّ مَا يَصِلُ إِلَى أُذُنَيْهِ فِي كُرَّاسَاتِهِ الخَاصَّةِ.

وَمِنْ حُسْنِ الحَظِّ أَنَّهُ أَدْرَكَ بَعْضَ أَصْحَابِ النّبِيِّ ﷺ وَمِنْهُمْ: أَبُو سَعِيْدٍ الخُدرِي، وَأَبُو مُوسَى الأَشْعَرِي، وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَعُدَيُّ بنُ حَاتِمِ الطَّائِيُّ، وَعَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ، وَالسَّيِّدَةُ عَائِشَةُ، أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ.

أَمَّا أُسْتَاذُهُ الأَكْبَرُ، فَكَانَ الحَبْرَ الأَعْظَمَ، الصَّحَابِيَّ عَبْدَ اللهِ بنَ العَبَّاسِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فَكَانَ ذَاكَ الفَتَى المُؤْمِنُ مُلازِمًا لَهُ مُلازَمَةَ الظِّلِّ لِصَاحِبِهِ، لا يُفَارِقُهُ أَبَدًا.. يَرْتَشِفُ العِلْمَ مِنْ ثَنَايَاهُ، وَيَنْهَلُ مِنْ بَحْرِ عِلْمِهِ مَا اسْتَطَاعَ.



وَكَانَ الصَّحَابِيُّ الجَلِيْلُ رضي الله عنه يَعْلَمُ مَدَى شَغَفِ الفَتَى الحَبَشِيِّ بِالعِلْمِ وَشِدَّةِ اهْتِمَامِهِ بِهِ، فَكَانَ يُدْنِيْهِ مِنْ مَجْلِسِهِ، وَيُلْقِي عَلَى مَسَامِعِهِ دُرُوسَ العَقِيْدَةِ، وَأَحْكَامَ القُرْآنِ الكَرِيْمِ، بَلْ إِنَّ ابنَ عَبَّاسٍ كَانَ يَخُصُّهُ فِي كَثِيْرٍ مِنَ الأَحْيَانِ بِدرُوسٍ إِضَافِيَّةٍ، تَشْتَمِلُ عَلَى شَتَّى المَعَارِفِ وَالعُلُومِ الدِّيْنِيَّةِ، بَدْءًا بِالقُرْآنِ الكَرِيْمِ وَتَفْسِيْرِهِ، وَالسّنَّةِ النّبَوِيَّةِ المُطَهَّرَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ الأَحَادِيْثِ، وَتَعَلَّمَ عَلَى يَدَيْهِ كَذَلِكَ أُصُولَ الفِقْهِ وَالتّأوِيْلِ، فَضْلاً عَنِ اللّغَةِ، وَالشِّعْرِ، وَغَيْرِهَا مِنْ عُلُومِ الحَيَاةِ.

وَكَانَ الفَتَى الحَبَشِيُّ المؤمِنُ يَزْدَادُ حَمَاسًا كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى أَنَّهُ كَانَ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ التّابِعِيْنَ يَسْأَلُهُمْ، وَيَسْتَفهِمُ مِنْهُمْ، وَيُقَارِنُ، وَيُسَجِّلُ، وَيُعْمِلُ عَقْلَهُ، حَتَّى صَارَ مِنْ كِبَارِ العُلَمَاءِ العَامِلِيْنَ، المشْهُودِ لَهُمْ بِالأَمَانَةِ وَالاسْتِقَامَةِ؛ فَارْتَفَعَ اسْمُهُ، وَعَلا نَجْمُهُ، وَصَارَ النَّاسُ يَأْتُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، بَلْ وَكَانُوا يَضْرِبُونَ أَكْبَادَ الإِبِلِ لِيَأْتُوا إِلَيْهِ، وَيَسْأَلُوهُ فِي أُمُورِ الدِّيْنِ. هَكَذَا كَانَ التَّابِعِيُّ الكَبِيْرُ "سَعِيْدُ بنُ جُبَيْرٍ"، المُكَنَّى بِأَبِي عَبْدِ اللهِ.

وَهُوَ بِجَانِبِ عِلْمِهِ الوَاسِعِ، كَانَ مِنَ العُبَّادِ الزُّهَّادِ المُخْلِصِيْنَ.

لَمْ يَكْتَفِ سَعِيْدُ بنُ جُبَيْرٍ بِكَوْنِهِ عَابِدًا للهِ، قَانِتًا لَهُ آنَاءَ اللّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، قَابِعًا تَحْتَ سَقْفِ المَسْجِدِ، يُلْقِي العِلْمَ عَلَى مَسَامِعِ الحَاضِرِيْنَ، بَلْ إِنَّهُ كَانَ يَهْتَمُّ بِشُئُونِ الحَيَاةِ وَالأَحْدَاثِ الجَارِيَةِ، يَدْعُو إِلَى الجِهَادِ فِي سَبِيْلِ اللهِ. وَلا غَرْوَ! فَكَثِيْرًا مَا كَانَ يَحْمِلُ سَيْفَهُ البَتَّارَ، وَيَنْطَلِقُ ضِمْنَ جُيُوشِ المُسْلِمِيْنَ بِكُلِّ شَجَاعَةٍ وَإِصْرَارٍ.

وَهَكَذَا كَانَتْ كَلِمَاتُ بنُ جُبَيْرٍ دَاخِلَ أَرْوِقَةِ المَسَاجِدِ، وَالتِي يُحَرِّضُ فِيْهَا عَلَى مُجَاهَدَةِ الأَعْدَاءِ، تَتَحَوَّلُ- بِالفِعْلِ- إِلَى دُرُوسٍ حَيَّةٍ، وَأَفْعَالٍ صَرِيْحَةٍ لِكُلِّ مَنْ كَانَ لَهُ عَيْنٌ، أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيْدٌ.



وَظلَّ يَتَنَقَّلُ سَعِيْدُ بنُ جُبَيْرٍ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، لِيَسْتَقِرَّ بالمَدِيْنَةِ المنَوَّرَةِ، وَقَدْ حَاوَلَ بَعْضُ المخْلِصِيْنَ أَنْ يُقْنِعُوهُ بِالابْتِعَادِ مُؤقَّتًا عَنِ المدِيْنَةِ، ذَلِكَ أَنَّ أَحَدَ الولاةِ، وَيُدْعَى خَالِدَ بنَ عَبْدِ اللهِ القَسْرِيَّ، وَهُوَ مِنْ رِجَالِ الحَجَّاجِ المقَرَّبِيْنَ، قَدْ أَصْبَحَ وَالِيًا عَلَى المَدِيْنَةِ.

وَعَلِمَ خَالِدٌ القَسْرِيُّ بوجُودِ بنِ جُبَيْرٍ، وَعَلَى الفَوْرِ أَمْسَكَ بِهِ، وَأَرْسَلَهُ مُقَيَّدًا إِلَى الحَجَّاجِ فِي مَدِيْنَةِ "وَاسِط"، دُوْنَ أَنْ يَأبَهَ لِبُكَاءِ ابنَتِهِ الصُّغْرَى، التِي أَمْسَكَتْ بِقَمِيْصِهِ تَرْجُوهُ - وَهِي تَنْتَحِبُ انتِحَابًا يُفَتِّتُ الأَكْبَادَ - أَنْ يُبْقَى بَيْنَهُمْ، وَلا يَذْهَبَ مَعَ جُنُودِ الحَجَّاجِ.

وَكَانَ "الحَجَّاجُ بنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيُّ" وَالِيًا مِنْ قِبَلِ الخَلِيْفَةِ الأُمَوِيِّ عَبْدِ الملِكِ بنِ مَروانَ عَلَى بِلادِ العِرَاقِ وَالمَشْرِقِ، وَبِلادِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ، وَكَانَ يَشْتَهِرُ بِحِدَّةِ طِبَاعِهِ، وَقَسْوَةِ قَلْبِهِ.

لَمَّا دَفَعَ الجُنُودُ الإِمَامَ الوَرِعَ، أَبَا عَبْدِ اللهِ سَعِيْدَ بنَ جُبَيْرٍ، عَلَى الوَحْشِ الكَاسِرِ الذِي يُسَمَّى الحَجَّاجَ، رَمَاهُ بِنَظَرَاتٍ قَاسِيَةٍ، ثُمَّ سَأَلَهُ بِحِدَّةٍ: مَا اسْمُكَ؟ فَقَالَ: سَعِيْدُ بنُ جُبَيْرٍ.

قَالَ الحَجَّاجُ: بَلْ شَقِيُّ بنُ كُسَيْرٍ!! فقال أَبُو عَبْدِ اللهِ: بَلْ كَانَتْ أُمِّي أَعْلَمَ بِاسْمِي مِنْكَ.

قَالَ الطَّاغِيَةُ: مَا تَقُولُ فِي مُعَاوِيَةَ؟ قَالَ سَعِيْدُ: كَاتِبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ مِنْ كُتَّابِ الوَحْيِ.

قَالَ الطَّاغِيَةُ: مَا قَوْلُكَ فِي الخُلَفَاءِ جَمِيْعِهِمْ مُنْذُ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الآنَ؟

أَجَابَ سَعِيْدُ بنُ جُبَيْرٍ: لَسْتُ عَلِيهِمْ بِوَكِيْلٍ، سَيُجْزَونَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمَسْرُورٌ وَمَثْبُورٌ.

قَالَ الطَّاغِيَةُ: فَأَيُّهُمْ أَرْضَى لِلخَالِقِ؟ أَجَابَ سَعِيْدٌ: عِلْمُ ذَلِكَ عِنْدَ الذِي يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ.



صَمَتَ الطَّاغِيَةُ قَلِيلاً، وَرَاحَتْ أَصَابِعُهُ تَتَخَلَّلُ لِحْيَتَهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ قَائِلاً: فَمَا تَقُولُ فِيَّ؟

قَالَ سَعِيْدٌ: أَنْتَ أَعْلَمُ بِنَفْسِكَ. صَاحَ الطَّاغِيَةُ: بَلْ أُرِيْدُ عِلْمَكَ أَنْتَ.

قَالَ: إِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّكَ مُخَالِفٌ كِتَابَ اللهِ، تَرَى مِنْ نَفْسِكَ أُمُورًا تُرِيْدُ بِهَا الهَيْبَةَ، وَهِيَ الَّتِي تُقْحِمُكَ الهَلاكَ، وَسَتَرِدُ غدًا النَّارَ فَتَعْلَمَ.

ضَغَطَ الحَجَّاجُ عَلَى أَسْنَانِهِ فِي غَضَبٍ وَزَمْجَرَ: وَاللهِ لأَقْتُلَنَّكَ قِتْلَةً لَمْ أَقْتُلْهَا أَحَدًا قَبْلَكَ، وَلا أَقْتُلُهَا أَحَدًا بَعْدَكَ. ابتَسَمَ سَعِيدٌ وَقَالَ: إِذًا تُفْسِدُ عَلَيَّ دُنْيَايَ، وَأُفْسِدُ عَلَيْكَ آخِرَتَكَ!

وَهَكَذَا اسْتَمَرَّتِ المُحَاوَرَةُ بَيْنَ العَالِمِ الزَّاهِدِ، الوَرِعِ، المُجَاهِدِ، الشُّجَاعِ، سَعِيْدِ بنِ جُبَيْرٍ، وَبَيْنَ الطَّاغِيَةِ الجَبَّارِ، الحَجَّاجِ بنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ، حَتَّى اسْتَشَاطَ الحَجَّاجُ غَضَبًا؛ فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ.

أَشَارَ سَعِيْدُ بنُ جُبَيْرٍ نَحْوَهُ قَائِلاً: إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، شَهَادَةً تُسْأَلُ عَنْهَا أَمَامَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ.

ثُمَّ رَفَعَ رَاحَتَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَدَعَا قَائِلاً: اللَّهُمَّ لا تُسَلِّطِ الحَجَّاجَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ بَعْدِي.

وَاسْتَجَابَ اللهُ لِسَعِيْدٍ، فَلَمْ تَمْضِ أَيَّامٌ قَلائِلُ عَلَى مَقْتَلِهِ حَتَّى لَحِقَ بِهِ الحَجَّاجُ، بَعْدَ إِصَابَتِهِ بِمَرَضٍ خَطِيْرٍ قَضَى عَلَيْهِ.

رَحِمَ اللهُ العَالِمَ، وَالمُجَاهِدَ، وَالشَّهِيْدَ، أَبَا عَبْدِ اللهِ "سَعِيْدَ بنَ جُبَيْرٍ".





انْظُرُوا مَاذَا يَفْعَلُ الْبِرُّ بِأَهْلِهِ!..

لَقَدْ كَانَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرِ الْقَرْنِيُّ (سَيِّدُ التَّابِعِينَ) أَحَدُ التَّائِهِينَ فِي زِحَامِ النَّاسِ، لا يَكَادُ يَشْعُرُ بِهِ أَحَدٌ. بَلْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَأْبَهُ لَهُ أَوْ يَحْفَلُ بِهِ، فَهُوَ فِي نَظَرِهِمْ أَقَلُّ شَأْنًا مِنْ أَنْ يُعِيرَهُ أَحَدٌ اهْتِمَامًا!. ذَلِكَ لِكَوْنِهِ فَقِيرًا شَدِيدَ الْفَقْرِ، أَسْمَالُهُ الْبَالِيَةُ مِنَ الصُّوفِ الْخَشِنِ. رُبَّمَا لِتَقَشُّفِهِ الزَّائِدِ، وَزُهْدِهِ فِي حَيَاةِ النَّاسِ وَابْتِعَادِهِ عَنْهُمْ قَدْرَ الإِمْكَانِ.

وَلَقَدْ كَانَ أُوَيْسُ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بِرًّا بِأُمِّهِ وَهَذَا مَا أَعْلَنَهُ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ ذَكَرَهُ لأَصْحَابِهِ رَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يَرَهُ، بَيْدَ أَنَّهُ رَآهُ بِعَيْنِ النُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ الإِلَهِيِّ ﷺ، حَتَّى أَنَّ الْمَعْصُومَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ وَصَفَهُ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْضِعٍ، وَصْفًا دَقِيقًا مُفَصَّلاً، وَكَانَ مِنْ بَيْنِ مَا قَالَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنَّ هَذَا الأُوَيْسَ الْقَرْنِيَّ يَكُونُ بَارًّا بِأُمِّهِ وَهَذَا هُوَ مَا يَعْنِينَا فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ، ذَلِكَ أَنَّ الْبِرَّ بِالأُمِّ مِنَ الأُمُورِ الْمَمْدُوحَةِ الَّتِي يَبْلُغُ بِهَا صَاحِبُهَا أَعْلَى الدَّرَجَاتِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي دَارِ الْفَنَاءِ فَمِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّهَا سَتَكُونُ فِي دَارِ الْبَقَاءِ.

وَلَعَلَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ مِنْ أُمَّةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي تَزِيدُهُ قُرْبًا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَعْرِفُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ بِهَا، بَيْدَ أَنَّهُ لا يَهْتَمُّ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، فَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ بِاعْتِبَارَاتِ الْبَشَرِ، كَأُصُولِهِ الْعِرْقِيَّةِ.. كَمْ يَمْلِكُ مِنَ الْمَالِ.. أَوْ الْوَلَدِ.. وَجَاهَتِهِ.. عِلْمِهِ. لَكِنَّ ثَمَّةَ أُمُورًا أُخْرَى قَدْ تَغْفَلُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ.

وَلَعَلَّ "أُوَيْسَ" كَانَ مِنْ ذَلِكَ النَّوْعِ الَّذِي لا يَلْفِتُ النَّظَرَ إِلَيْهِ، فَهُوَ لَيْسَ مُتَفَرِّدًا بَيْنَ جَمَاعَتِهِ، أَوْ يَفْعَلُ الأَفَاعِيلَ الَّتِي تُثِيرُ الدَّهْشَةَ وَتَدْعُو لِلتَّقْدِيرِ وَالاحْتِرَامِ مَعَ الأَخْذِ فِي الاعْتِبَارِ لَوْنَهُ الأَسْوَدَ، وَفَقْرَهُ الْمُدْقِعَ، وَأَسْمَالَهُ الْبَالِيَةَ، حَتَّى إِنَّهُ كَثِيرًا مَا كَانَ يَحْبِسُهُ الْعُرْيُ فِي بَيْتِهِ الْبَسِيطِ، وَيَكَادُ يَقْتُلُهُ الْجُوعُ أَكْثَرَ الأَحْيَانِ، وَلَكِنْ مَعَ كُلِّ هَذَا فَقَدْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَهَادَةَ حَقٍّ وَصِدْقٍ، وَأَخْبَرَنَا بِأَنَّهُ مُسْتَجَابُ الدُّعَاءِ، فَذَاتَ يَوْمٍ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: "لَيُصَلِّيَنَّ مَعَكُمْ غَدًا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ"..

فَطَمِعَ أَبُو هُرَيْرَةٍ أَنْ يَكُونَ هُوَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَغَدَا يُصَلِّي خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَقَامَ فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى انْصَرَفَ النَّاسُ، وَبَقِيَ هُوَ وَالنَّبِيُّ ﷺ، وَبَيْنَمَا بَعْضُ الصَّحَابَةِ عِنْدَهُ إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ أَسْوَدُ مُتَّزِرًا بِخِرْقَةٍ، مُرْتَدِيًا بِرُقْعَةٍ، فَجَاءَ حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ:

يَا نَبِيَّ اللهِ، ادْعُ اللهَ لِي. فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ لَهُ بِالشَّهَادَةِ وَالْحَاضِرُونَ لَيَجِدُونَ مِنْهُ رِيحَ الْمِسْكِ الأَذْفَرِ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةٍ: يَا رَسُولَ اللهِ أَهُوَ هُوَ؟ نَعَمْ، إِنَّهُ مَمْلُوكٌ لِبَنِي فُلانَ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةٍ: أَفَلا تَشْتَرِيهِ فَتَعْتِقَهُ يَا نَبِيَّ اللهِ. قَالَ ﷺ: وَأَنَّى لِي ذَلِكَ إِنْ كَانَ اللهُ تَعَالَى يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَهُ مِنْ مُلُوكِ الْجَنَّةِ. يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟



إنَّ لأَهْلِ الْجَنَّةِ مُلُوكًا وَسَادَةً، وَإِنَّ هَذَا الأَسْوَدَ أَصْبَحَ مِنْ مُلُوكِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَسَادَتِهِمْ.

يَا أَبَا هُرَيْرَةَ: إِنَّ اللَه تَعَالَى يُحِبُّ مِنْ خَلْقِهِ الأَصْفِيَاءَ، الأَبْرِيَاءَ، الشُّعْثَةَ رُؤوسُهُمْ، الْمُغَبَّرَةَ وُجُوهُهُمْ، الْخَمِصَةَ - الْجَوْعَى - بُطُونُهُمْ إِلاَّ مِنَ الْكَسْبِ الْحَلالِ.

الَّذِينَ إِذَا اسْتَأْذَنُوا عَلَى الأُمَرَاءِ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ، وَإِنْ خَطَبُوا الْمُتَنَعِّمَاتِ لَمْ يُنَكَّحُوا، وَإِنْ غَابُوا يُفْتَقَدُوا، وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُدْعَوْا، وَإِنْ طَلَعُوا لَمْ يُفْرَحْ بِطَلْعَتِهِمْ، وَإِنْ مَرِضُوا لَمْ يُعَادُوا، وَإِنْ مَاتُوا لَمْ يُشْهَدُوا. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ لَنَا بِرَجُلٍ مِنْهُمْ؟

قَالَ ﷺ : ذَلِكَ أُوَيْسُ الْقَرَنِيُّ. قَالُوا: وَمَا أُوَيْسُ الْقَرَنِيُّ؟

قَالَ ﷺ : أَشْهَلُ ذُو سهويه، بَعِيدُ.. بَعِيدُ مَا بَيْنَ الْمِنْكَبَيْنِ، مُعْتَدِلُ الْقَامَةِ، آدَمُ (أَسْوَدُ) شَدِيدُ الأَدَمَةِ، ضَارِبٌ بِذَقْنِهِ إِلَى صَدْرِهِ، رَامٍ بِذَقْنِهِ إِلَى مَوْضِعِ سُجُودِهِ، وَاضِعٌ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ، يَتْلُو الْقُرْآنَ، يَبْكِي عَلَى نَفْسِهِ، ذُو طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ، مُتَّزِرٌ بِإِزَارِ صُوفٍ وَرِدَاؤُهُ صُوفٌ، مَجْهُولٌ فِي أَهْلِ الأَرْضِ، مَعْرُوفٌ فِي السَّمَاءِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّ قَسَمَهُ، أَلاَ وَإِنَّ تَحْتَ مِنْكَبِهِ الأَيْسَرِ لَمْعَةً بَيْضَاءَ، أَلاَ وَإِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قِيلَ لِلْعِبَادِ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، وَيُقَالُ لأُوَيْسٍ: قِفْ فَاشْفَعْ، فَيُشَفِّعُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي مِثْلِ عَدَدِ رَبِيعَةٍ وَمُضَرٍ.



ثُمَّ نَظَرَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ نَحْوَ أَبِى حَفْصٍ، وَأَبِي الْحَسَنِ وَقَالَ: يَا عُمَرُ، وَيَا عَلِيُّ إِذَا أَنْتُمَا لَقِيتُمَاهُ فَاطْلُبَا إِلَيْهِ يَسْتَغْفِرْ لَكُمَا. (مسلم).

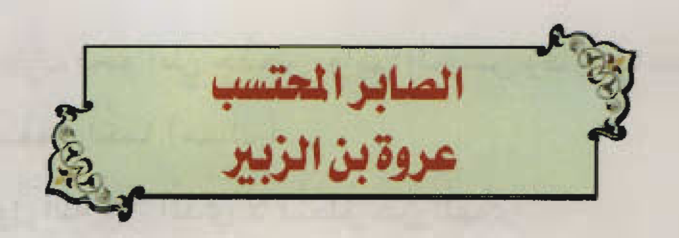
هَكَذَا وَصَفَهُ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الَّذِي لا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى.

وَكَانَ مِنَ الْعَلامَاتِ الْبَارِزَةِ الَّتِي مَيَّزَتْ أُوَيْسَ الْقَرْنِيَّ هُوَ بِرُّهُ الشَّدِيدُ بِأُمِّهِ، وَاهْتِمَامُهُ الْبَالِغُ بِهَا، لِدَرَجَةِ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتْرُكَهَا. لِشِدَّةِ احْتِيَاجِهَا إِلَيْهِ. وَيَذْهَبَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ. قَالَ ﷺ: إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ، وَلَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، وَلَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ، وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَبَرِئَ، فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ.

وَلَقَدْ بَحَثَ عَنْهُ أَفَاضِلُ الصَّحَابَةِ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، حِينَ تَوَلَّى خِلافَةَ الْمُسْلِمِينَ، وَاسْتَطَاعَ بَعْدَ عَنَاءٍ شَدِيدٍ، وَجُهْدٍ جَهِيدٍ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ وَيَعْرِفَ فِيهِ الْعَلامَاتِ الْمُمَيَّزَةَ الَّتِي وَصَفَهَا النَّبِيُّ الأَمِينُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ.

فَلَمَّا تَأَكَّدَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنَّ هَذَا هُوَ أُوَيْسٌ، سَأَلَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ اللهَ لَهُ، فَفَعَلَ، فَلَمَّا عَلِمَ قَوْمُهُ بِمَكَانَتِهِ، وَعُلُوِّ شَأْنِهِ وَهُمْ الَّذِينَ كَانُوا يَأْنَفُونَ مِنَ الْحَدِيثِ مَعَهُ، وَلا يُعِيرُونَهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ اهْتِمَامٍ، صَارُوا الآنَ يُلاحِقُونَهُ، وَيَتَزَاحَمُونَ عَلَى بَابِهِ لِيَسْتَغْفِرَ اللهَ لَهُمْ، لَكِنَّهُ اخْتَفَى فَجْأَةً حِينَ وَجَدَ أَنَّ أَمْرَهُ قَدْ انْكَشَفَ لِلنَّاسِ، وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَصْنَعَ مَا يَصْنَعُ لِلهِ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ.





مَنْ هُوَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ؟

هَلْ تَعْرِفُ الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ، حَوَارِيَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَوَّلَ مَنْ سَلَّ سَيْفًا فِى الإِسْلامِ.. وَأَحَدَ الْعَشْرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ..؟ إِنَّهُ أَبُوهُ.

هَلْ تَعْرِفُ السَّيِّدَةَ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِى بَكْرٍ، ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ الَّتِى شَقَّتْ نِطَاقَهَا يَوْمَ الْهِجْرَةِ شِقَّيْنِ لِتَرْبِطَ بِأَحَدِهِمَا مِزْوَدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَبِالآخَرِ سِقَاءَهُ..؟ إِنَّهَا أُمُّهُ.

هَلْ تَعْرِفُ السَّيِّدَةَ الْجَلِيلَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا..؟ إِنَّهَا خَالَتُهُ..

هَلْ تَعْرِفُ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ أَوَّلَ مَوْلُودٍ لِلْمُهَاجِرِينَ بِالْمَدِينَةِ.. شَقِيقُهُ.

نَعَمْ. أَيُّهَا الأَصْدِقَاءُ. إِنَّ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ بْنَ الْعَوَّامِ قَدْ وُلِدَ وَتَرَعْرَعَ فِى بِيئَةٍ طَيِّبَةٍ طَاهِرَةٍ، وَيُعَدُّ بَيْتُهُ مِنْ أَعَزِّ بُيُوتِ الْمُسْلِمِينَ شَأْنًا وَأَرْفَعِهَا مَقَامًا.

وَكَانَ مَوْلِدُهُ فِى أَوَاخِرِ خِلافَةِ الْفَارُوقِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، لِذَلِكَ فَهُوَ يُعَدُّ مِنْ سَادَةِ التَّابِعِينَ، لأَنَّهُ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، لَكِنَّهُ رَأَى الْكَثِيرَ مِنْ أَصْحَابِهِ الْكِرَامِ، فَأَخَذَ عَنْهُمْ وَتَعَلَّمَ عَلَى أَيْدِيهِمْ، لِذَلِكَ فَهُوَ يُعَدُّ تَابِعِيًّا، بَلْ هُوَ أَحَدُ كِبَارِ التَّابِعِينَ الَّذِينَ يُعْزَى إِلَيْهِمْ الْعِلْمُ بِالْمَدِينَةِ وَكَانُوا عَشْرَةً، وَهُمْ:

عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَأَبُو بَكْرِ بْنُ سُلَيْمَانِ وَعُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ وَأَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَسُلَيْمَانُ بْنُ يَسَارٍ وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَسَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَامِرٍ وَخَارِجَةُ بْنُ زَيْدٍ.

هَؤُلاءِ هُمْ رُءُوسُ الْفِقْهِ فِى الْمَدِينَةِ، وَالَّذِينَ دَعَاهُمْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَوْمَ أَنْ تَوَلَّى إِمْرَةَ الْمَدِينَةِ وَرَاحَ يُوصِيهِمْ قَائِلاً: "... إِنِّى دَعَوْتُكُمْ لأَمْرٍ تُؤْجَرُونَ عَلَيْهِ وَتَكُونُونَ فِيهِ أَعْوَانًا عَلَى الْحَقِّ، لا أُرِيدُ أَنْ أَقْطَعَ الأَمْرَ إِلاَّ بِرَأْيِكُمْ أَوْ بِرَأْيِ مَنْ حَضَرَ مِنْكُمْ، فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَحَدًا يَعْتَدِى أَوْ بَلَغَكُمْ عَنْ عَامِلٍ لِى ظَلامَةٌ فَأَسْأَلُكُمْ بِاللهِ أَنْ تُبْلِغُونِى ذَلِكَ..". فَخَرَجُوا جَمِيعًا وَهُمْ يَدْعُونَ لَهُ بِخَيْرٍ.

لَقَدْ بَلَغَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ تِلْكَ الْمَكَانَةَ السَّامِقَةَ فِى الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ لاهْتِمَامِهِ الْبَالِغِ، وَحِرْصِهِ عَلَى أَنْ يَكُونَ فَقِيهًا يَنْتَفِعُ النَّاسُ بِعِلْمِهِ، وَقَدْ تَتَلْمَذَ عَلَى يَدِ مَجْمُوعَةٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلَى رَأْسِهِمْ أَبُوهُ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَأُمُّهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِى بَكْرٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ الأَنْصَارِىُّ، وَأَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِىُّ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِى سُفْيَانٍ، وَالنُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ وَأَبُو هُرَيْرَةِ، وَالْعَبَادِلَةُ؛ وَهُمْ: عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ، فَضْلاً عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ السَّيِّدَةِ " عَائِشَةٍ " خَالَتِهِ وَالَّتِى كَانَ مُلازِمًا لَهَا، يَتَلَقَّى أَحَادِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى تَشَرَّبَهَا قَلْبُهُ، وَوَعَاهَا عَقْلُهُ.. وَهنُاكَ كَثِيرُونَ آخَرُونَ تَلَقَّى عَنْهُمْ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.. كَمَا أَنَّهُ يُعَدُّ أَوَّلَ مَنْ كَتَبَ فِى الْمَغَازِى.

لَمْ يَكُنْ عُرْوَةُ مُجَرَّدَ وِعَاءٍ لِتَلَقِّى الْعِلْمِ فَقَطْ، بَلْ كَانَ عَالِمًا عَامِلاً.. فَقَدْ كَانَ صَوَّامًا قَوَّامًا طُوَالَ الْعَامِ فِيمَا عَدَا الْعِيدَيْنِ، وَكَانَ لَهُ وِرْدٌ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَقْرَؤُهُ فِى الْمُصْحَفِ بِتَمَعُّنٍ، ثُمَّ هُوَ يَقُومُ بِهِ اللَّيْلَ. وَقَدْ ظَلَّ مُحَافِظًا عَلَى ذَلِكَ طُوَالَ عُمْرِهِ.

وَيُعَدّ "ابْنُ الزُّبَيْرِ" مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُضْرَبُ بِهِمِ الْمَثَلُ فِى الْكَرَمِ وَالْجُودِ، جَنْبًا إِلَى جَنْبِ عِلْمِهِ، وَوَرَعِهِ.. وَعِبَادَتِهِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَلَيْسَتْ قِصَّةُ الْبُسْتَانِ عَنَّا بِبَعِيدَةٍ، ذَلِكَ الْبُسْتَانُ الَّذِى يُعَدُّ مِنْ أَعْظَمِ بَسَاتِينِ الْمَدِينَةِ، لِعُذُوبَةِ مَائِهِ، وَوَفْرَةِ أَشْجَارِهِ، وَجَوْدَةِ نَخِيلِهِ، وَكَانَ يَضْرِبُ عَلَيْهِ سُورًا شَاهِقًا يَلْتَفُّ مِنْ حَوْلِهِ الْتِفَافَ السِّوَارِ بِالْمِعْصَمِ لِيَحْفَظَهُ مِنْ عَبَثِ الصِّبْيَانِ وَالْمَاشِيَةِ.



حَتَّى إِذَا مَا نَضَجَتْ الثِّمَارُ، وَبَلَغَتْ أَقْصَى حَالاتِ النُّضْجِ كَسَرَ حَائِطَ الْبُسْتَانِ وَجَعَلَ النَّاسَ جَمِيعًا يَدْخُلُونَهُ يَأْكُلُونَ وَيَحْمِلُونَ مَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَحْمِلُوهُ إِلَى بُيُوتِهِمْ.

حَتَّى إِذَا مَا أَتَوْا عَلَى ثِمَارِهِ أَعَادَ تَجْدِيدَ الْحَائِطِ مَرَّةً أُخْرَى. وَكَانَ إِذَا دَخَلَ بُسْتَانَهُ رَدَّدَ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.. ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاقُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ"﴾ [الكهف: ٣٩].

وَإِلَيْكُمْ - أَيُّهَا الأَصْدِقَاءُ - قِصَّةَ النَّازِلَةِ الَّتِى نَزَلَتْ عَلَيْهِ لِنَعْرِفَ قَدْرَ هَذَا الرَّجُلِ وَنَتَعَلَّمَ مِنْهُ كَيْفَ يَكُونُ الصَّبْرُ. كَانَ ذَلِكَ فِى عَهْدِ الْخَلِيفَةِ الأُمَوِىِّ "الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ"، حِينَ دَعَاهُ يَوْمًا لِمَجْلِسِهِ بِعَاصِمَةِ الْخِلافَةِ الإِسْلامِيَّةِ " دِمَشْقٍ ".

وَاسْتَجَابَ " ابْنُ الزُّبَيْرِ " لِدَعْوَةِ الْخَلِيفَةِ وَاصْطَحَبَ مَعَهُ بَعْضَ وَلَدِهِ، وَهُنَاكَ اسْتَقْبَلَهُ الْخَلِيفَةُ اسْتِقْبَالاً حَافِلاً، وَأَكْرَمَ وِفَادَتَهُ، وَجَعَلَهُ عَلَى رَأْسِ الْحَاضِرِينَ، فِى تِلْكَ اللَّحَظَاتِ.

خَرَجَ أَكْبَرُ أَوْلادِهِ وَيُسَمَّى "مُحَمَّدٌ" لِيَتَجَوَّلَ فِى إِصْطَبْلِ الْخُيُولِ يَتَأَمَّلُ تِلْكَ الْجِيَادَ الصَّافِنَاتِ، وَبَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ بَيْنَهَا، إِذَا بِإِحْدَاهَا وَقَدْ رَمَحَتْهُ رَمْحَةً عَنِيفَةً كَانَتْ سَبَبًا فِى هَلاكِهِ وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِ فِى الْحَالِ، فَلَمَّا وَصَلَ الْخَبَرُ إِلَى أَبِيهِ - وَكَانَ وَلَدُهُ مُحَمَّدٌ هَذَا مِنْ أَحَبِّ أَوْلادِهِ إِلَى قَلْبِهِ - لَمْ يَقُلْ أَكْثَرَ مِنْ كَلِمَةِ " الْحَمْدُ لِلَّهِ ".

وَلَمْ يَكَدْ الأَبُ الْمَفْجُوعُ فِى وَلَدِهِ يَفْرُغُ مِنْ دَفْنِهِ حَتَّى شَعَرَ بِآلامٍ مُبَرِّحَةٍ فِى إِحْدَى سَاقَيْهِ. وَمَا أَنْ وَصَلَ قَصْرَ الْخَلِيفَةِ حَتَّى وَجَدَهَا قَدْ تَوَرَّمَتْ وَتَضَخَّمَتْ، وَهُنَالِكَ أَرْسَلَ الْخَلِيفَةُ فِى طَلَبِ الأَطِبَّاءِ لِيُعَالِجُوا سَاقَهُ. بَيْدَ أَنَّهُمْ حِينَ رَأَوْهَا أَجْمَعُوا عَلَى ضَرُورَةِ بَتْرِهَا فِى الْحَالِ.



فَقَدْ غزَتْهَا " الأَكَلَةُ " وَتَمَكَّنَتْ مِنْهَا، وَإِذَا هُوَ لَمْ يَتَخَلَّصْ مِنْ تِلْكَ السَّاقِ سَوْفَ تَسْرِى الأَكَلَةُ فِى جَسَدِهِ كُلِّهِ وَتَكُونُ سَبَبًا فِى هَلاكِهِ.. وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مَفَرٌّ. لَمَّا أَعَدُّوا الْعُدَّةَ لإِجْرَاءِ الْجِرَاحَةِ، وَأَحْضَرُوا الْمَنَاشِيرَ وَالْمَبَاضِعَ وَغَيْرَهَا مِنْ لَوَازِمِ الْعَمَلِيَّةِ؛ أَرَادَ الْجَرَّاحُ أَنْ يَسْقِيهِ مُسْكِرًا فَرَفَضَ، قَالُوا لَهُ: إِنَّهَا جِرَاحَةٌ خَطِيرَةٌ وَلا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مَهْمَا أُوتِىَ مِنْ قُوَّةٍ وَصَلابَةٍ أَنْ يَتَحَمَّلَ آلامَهَا، لابُدَّ مِنْ بَعْضِ الْمُخَدِّرِ لِكَىْ تَغِيبَ عَنْ وَعْيِكَ وَنَسْتَطِيعَ أَنْ نَقُومَ نَحْنُ بِعَمَلِنَا عَلَى الْوَجْهِ الأَكْمَلِ. لَكِنَّهُ أَبَى بِشِدَّةٍ قَائِلاً:

" مَا أُحِبُّ أَنْ يُسْلَبَ عُضْوٌ مِنْ أَعْضَائِى دُونَ أَنْ أَشْعُرَ بِأَلَمِهِ وَأَحْتَسِبُ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ.."

وَلَمَّا وَجَدَ الدَّهْشَةَ تَرْتَسِمُ عَلَى وُجُوهِهِمْ؛ ابْتَسَمَ قَائِلاً: "دَعُونِى أُصَلِّى رَكْعَتَيْنِ، وَإِذَا مَا وَجَدْتُمُونِي قَدْ انْدَمَجْتُ فِى الصَّلاةِ، فَإِلَيْكُمْ سَاقِى، شَأْنُكُمْ بِهَا.. افْعَلُوا مَا بَدَا لَكُمْ ؛ لأَنَّ رَوْعَةَ الصَّلاةِ، وَعُذُوبَتَهَا سَتَقْضِى عَلَى كُلِّ الآلامِ وَالأَوْجَاعِ. وَبِالْفِعْلِ.. مَا أَنْ دَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ فِى الصَّلاةِ حَتَّى لَمْ يَعُدْ يَشْعُرُ بِشَىْءٍ الْبَتَّةَ!!.. وَمَا أَنْ فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ حَتَّى كَانَتْ سَاقُهُ قَدْ بُتِرَتْ، فَدَعَا بِهَا فَأَحْضَرُوهَا لَهُ.

هَزَّ رَأْسَهُ مُبْتَسِمًا، ثُمَّ أَمْسَكَ بِهَا وَقَبَّلَهَا قَائِلاً: "أَمَا وَالَّذِى حَمَلَنِى عَلَيْكِ فِى عَتْمَاتِ اللَّيْلِ إِلَى الْمَسَاجِدَ، إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّنِى مَا مَشَيْتُ بِكِ إِلَى حَرَامٍ قَطُّ..."

وَلَمَّا حَمَلُوهُ وَعَادُوا بِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ اسْتَقْبَلَهُ أَهْلُهَا بِتَأَثُّرٍ بَالِغٍ وَرَاحُوا يُعَزُّونَهُ وَيُطَيِّبُونَ خَاطِرَهُ.. ابْتَسَمَ ابْنُ الزُّبَيْرِ فِى وَدَاعَةٍ قَائِلاً: "اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، كَانُوا سَبْعَةَ أَبْنَاءٍ أَخَذْتَ وَاحِدًا وَأَبْقَيْتَ سِتَّةً، وَكَانَ لِى أَطْرَافٌ أَرْبَعَةٌ فَأَخَذْتَ وَاحِدًا وَأَبْقَيْتَ ثَلاثَةً. فَلَئِنْ كُنْتَ أَخَذْتَ فَلَقَدْ أَعْطَيْتَ، وَلَئِنْ كُنْتَ ابْتَلَيْتَ فَلَطَالَمَا عَافَيْتَ. ثُمَّ تَمَثَّلَ بِأَبْيَاتٍ " لِمَعْنِ بْنِ أَوْسٍ" يَقُولُ فِيهَا:

لَعَمْرِكَ مَا أَهْوَيْتُ كَفِّى لِرِيبَـةٍ   وَلا حَمَلَتْنِى نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِى

وَلا قَادَنِى سَمْعِى وَلا بَصَرِى لَهَا   وَلا دَلَّنِى رَأْيِي عَلَيْهَا وَلا عَقْلِى

وَأَعْلَمُ أَنِّى لَمْ تُصِبْنِى مُصِيبَـةٌ   مِنَ الدَّهْرِ إِلاَّ قَدْ أَصَابَتْ فَتًى قَبْلِى.

يَقُولُ عُلَمَاءُ السِّيَرِ، ثُمَّ لَمْ يُسْمَعْ لِعُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ ذَكَرَ سَاقَهُ وَلا وَلَدَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَبَدًا حَتَّى مَاتَ وَكَانَ صَائِمًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.



فقيه المدينة
ربيعة الرأي

بَعْدَ ثَلاثِينَ عَامًا بِالتَّمَامِ وَالْكَمَالِ عَادَ.. عَادَ فَرُّوخٌ..

نَعَمْ، عَادَ ذَلِكَ الْمُجَاهِدُ الَّذِى نَاهَزَ السِّتِّينَ مِنْ عُمْرِهِ.

إِنَّهُ يَعُودُ بِمَلابِسِ الْفُرْسَانِ مُتَّشِحًا بِسَيْفِهِ، يُلْقِى نَظَرَاتِهِ عَلَى شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ وَبُيُوتِهَا. وَهُوَ فَوْقَ جَوَادِهِ الْمُطْهَمِ، الأَصِيلِ.

وَكَانَ النَّاسُ يَتَحَرَّكُونَ هُنَا وَهُنَاكَ دُونَ أَنْ يَهْتَمَّ أَحَدٌ بِهِ أَوْ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ وَهَذَا لَمْ يَشْغَلْهُ الْبَتَّةَ. كُلُّ مَا كَانَ يَشْغَلُهُ هُوَ كَيْفَ حَالُ زَوْجَتِهِ، وَكَيْفَ يَكُونُ وَقْعُ الْمُفَاجَأَةِ عَلَيْهَا بَعْدَ كُلِّ تِلْكَ السِّنِينَ الطِّوَالِ. وَرَاحَ الْفَارِسُ يَسِيرُ فِى الشَّوَارِعِ وَالأَزِقَّةِ يَسْتَرْجِعُ بِذَاكِرَتِهِ مَكَانَ الْبَيْتِ؛ فَقَدْ تَغَيَّرَتِ الْبُيُوتُ كَثِيرًا وَالشَّوَارِعُ أَيْضًا. لَكِنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَجِدَ الْبَيْتَ دُونَ صُعُوبَةٍ.

كَانَ الْمَسَاءُ قَدْ حَلَّ، وَأَوَى مُعْظَمُ النَّاسِ إِلَى بُيُوتِهِمْ. لَمْ يَتَرَدَّدْ فَرُّوخُ حِينَ وَجَدَ بَابَ بَيْتِهِ الْقَدِيمِ مُوَارِبًا. نَزَلَ مِنْ عَلَى صَهْوَةِ جَوَادِهِ، وَدَفَعَ الْبَابَ ثُمَّ وَلِجَ صَحْنَ الدَّارِ.

مَا كَادَ الْبَابُ يُصْدِرُ ذَلِكَ الأَنِينَ الْمُزْعِجَ، وَدَقَّاتُ أَقْدَامِهِ الثَّقِيلَةِ تَتَحَرَّكُ عَلَى الأَرْضِ حَتَّى تَنَبَّهَ رَبُّ الدَّارِ، وَأَطَلَّ مِنَ الطَّابِقِ الأَعْلَى فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْفَارِسَ يَقِفُ مُنْتَصِبًا فِى صَحْنِ الدَّارِ.

هَبَطَ مِنْ أَعْلَى مُزَمْجِرًا فِى غَضَبٍ: كَيْفَ تَقْتَحِمُ بَيْتِى يَا عَدُوَّ اللهِ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ لِلْبُيُوتِ حُرْمَةً يَجِبُ أَنْ تُصَانَ. ثُمَّ هَجَمَ عَلَيْهِ كَالْوَحْشِ الْكَاسِرِ، وَجَذَبَهُ مِنْ تَلابِيبِهِ قَائِلاً: وَاللهِ لأَذْهَبَنَّ بِكَ إِلَى السُّلْطَانِ.. وَلَمْ يَقِفِ الآخَرُ مَكْتُوفَ الْيَدَيْنِ إِذْ حَاوَلَ الدِّفَاعَ عَنْ نَفْسِهِ وَهُوَ يَهْدِرُ بِغَضَبٍ: بَلْ كَيْفَ لَكَ أَنْتَ أَنْ تَسْكُنَ فِى بَيْتِى أَيُّهَا الدَّخِيلُ!!

وَتَصَارَعَ الرَّجُلانِ، وَرَاحَتْ أَصْوَاتُهُمَا الْهَادِرَةُ الْغَاضِبَةُ تَتَقَافَزُ فِى أَنْحَاءِ الْبَيْتِ وَتَعْلُو وَتَرْتَفِعُ لِيَتَرَدَّدَ صَدَاهَا بِالْخَارِجِ.

وَفِى لَحَظَاتٍ سَرِيعَةٍ إِذَا بِالْبَيْتِ يَمْتَلِئُ بِالنَّاسِ وَالْجِيرَانِ الَّذِينَ هَبُّوا لاسْتِطْلاعِ الأَمْرِ وَإِنْقَاذِ جَارِهِمْ مِنْ هَذَا الْمُعْتَدِى الآثِمِ الَّذِى يَتَمَسَّحُ فِى مَلابِسِ الْفُرْسَانِ.

كَانَ فَرُّوخُ يَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا سَيَعْرِفُهُ، فَلَمَّا وَجَدَ النَّاسَ تَنْحَازُ إِلَى الْجَانِبِ الآخَرِ، صَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا نَاسُ.. أَنَا فَرُّوخُ.. أَلا يَعْرِفُنِى أَحَدٌ؟!.. أَنَا صَاحِبُ الدَّارِ.. فِى تِلْكَ اللَّحْظَةِ انْطَلَقَتْ كَلِمَةٌ أَصَابَتِ الْجَمِيعَ بِالْوُجُومِ وَالدَّهْشَةِ. إِنَّهُ أَبُوكَ يَا وَلَدِى..

كَانَتْ رَأْسُ " أُمِّ رَبِيعَةٍ " تُطِلُّ مِنْ أَعْلَى الدَّارِ، ثُمَّ هَبَطَتْ الدَّرَجَ وَهِىَ تُرَدِّدُ: إِنَّهُ أَبُوكَ يَا وَلَدِى.. ثُمَّ أَشَارَتْ إِلَى الْجَمْعِ الَّذِى مَلأَ الدَّارَ.. وَهَتَفَتْ قَائِلَةً: تَفَضَّلُوا رَاشِدِينَ، جَزَاكُمْ اللهُ خَيْرًا، فَهَذَا زَوْجِى " فَرُّوخُ" أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ جَاءَ إِلَيْنَا بَعْدَ غِيَابٍ.

وَلَكَ أَنْ تَتَصَوَّرَ عَزِيزِى كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ اللِّقَاءُ، مُؤَكِّدٌ أَنَّ الْقَلَمَ يَقِفُ عَاجِزًا عَنْ وَصْفِ تِلْكَ اللَّحْظَةِ الَّتِى جَمَعَتْ بَيْنَ الابْنِ وَأَبِيهِ بَعْدَ كُلِّ تِلْكَ السِّنِينَ. لَقَدْ تَعَانَقَا عِنَاقًا حَارًّا تَكَادُ الْقُلُوبُ تَنْخَلِعُ مِنْ شِدَّةِ تَأَثُّرِهِ، وَرَاحَتْ دُمُوعُهُمَا تَنْهَمِرُ بِشِدَّةٍ وَتَخْتَلِطُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ. ثُمَّ صَعَدُوا جَمِيعًا إِلَى الطَّابِقِ الأَعْلَى.

لَمَّا هَدَأَتْ لَحَظَاتُ الاسْتِقْبَالِ الْحَارَّةُ. وَجَلَسَ فَرُّوخُ مَعَ زَوْجَتِهِ.. قَالَ لَهَا: كَيْفَ حَالُ الثَّلاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ يَا زَوْجَتِى الْعَزِيزَةَ، إِنَّ مَعِي عَشْرَةَ آلافٍ أُخْرَى جِئْتُ بِهَا، سَوْفَ نَضُمُّ نَضُمُّ الْعَشْرَةَ آلافٍ إِلَى الثَّلاثِينَ أَلْفًا وَنَشْتَرِى بَيْتًا جَدِيدًا، وَنَقُومُ بِعَمَلِ مَشْرُوعٍ تِجَارِىٍّ يُدِرُّ عَلَيْنَا رِبْحًا جَيِّدًا.

اضْطَرَبَتْ الزَّوْجَةُ وَلَمْ تَعْرِفْ مَاذَا يُمْكِنُ لَهَا أَنْ تَصْنَعَ. تَنْظُرُ إِلَى زَوْجِهَا وَهُوَ لا يَزَالُ يَتَحَدَّثُ بِحَمَاسٍ، وَصَوْتٌ بِدَاخِلِهَا يَهْدِرُ بِعُنْفٍ:" مَاذَا أَفْعَلُ، مَاذَا أَقُولُ لَكَ يَا زَوْجِى..أَأَقُولُ لَكَ إِنَّ الثَّلاثِينَ أَلْفًا ذَهَبَتْ، لَمْ يَعُدْ مِنْهَا فِلْسًا وَاحِدًا؟ أَأَقُولُ لَكَ إِنَّ تَعْلِيمَ وَلَدِكَ اسْتَغْرَقَ الْكَثِيرَ وَالْكَثِيرَ مِنَ الْمَالِ الَّذِى تَرَكْتَهُ.



بَلْ، أَقُولُ لَكَ إِنَّ وَلَدَكَ "رَبِيعَةَ " مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ بَذْلاً لِلْخَيْرِ، يُعْطِى الْفُقَرَاءَ بِلا حِسَابٍ. لَقَدْ نَفِدَ الْمَالُ كُلُّهُ، لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلاَّ الْقَلِيلُ الَّذِى لا يُذْكَرُ ". فِى تِلْكَ اللَّحْظَةِ تَرَدَّدَ صَوْتُ الأذَانِ.

قَالَ فَرُّوخٌ: سَأَذْهَبُ مَعَ وَلَدِى" رَبِيعَةٍ " لِنُصَلِّىَ الْفَجْرَ مَعًا.

قَالَتْ الزَّوْجَةُ: لا عَلَيْكَ، اذْهَبْ أَنْتَ فَإِنَّ رَبِيعَةَ قَدْ سَبَقَكَ.

انْطَلَقَ " فَرُّوخُ " إِلَى مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّى الْفَجْرَ، وَجَدَ زِحَامًا لَمْ يَجِدْ لَهُ مَثِيلاً مِنْ قَبْلُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّىَ بِالدَّاخِلِ وَاضْطُرَّ لِلصَّلاةِ بِالْخَارِجِ.

كَانَ فَرُّوخُ يَتَطَلَّعُ بِعَيْنَيْهِ هُنَا وَهُنَاكَ يَبْحَثُ عَنْ وَلَدِهِ " رَبِيعَةٍ "،كَمْ يَشْتَاقُ إِلَيْهِ. يَتَمَنَّى أَنْ يَضُمَّهُ إِلَى صَدْرِهِ وَيَحْكِى لَهُ عَنْ سَنَوَاتِ الْجِهَادِ الطَّوِيلَةِ.. ثُمَّ هَزَّ رَأْسَهُ وَابْتَسَمَ قَائِلاً: الْحَمْدُ للهِ، كَبِرَ وَلَدِى وَصَارَ رَجُلاً أَطْوَلَ مِنِّى.

قَامَ فَرُّوخُ وَدَخَلَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ وَرَاحَ يُتَمْتِمُ بِكَلِمَاتٍ، ثُمَّ وَقَفَ فِى الرَّوْضَةِ الشَّرِيفَةِ بَيْنَ قَبْرِ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْبَرِهِ، وَرَاحَ يُصَلِّى وَيُصَلِّى مَا شَاءَ اللهُ لَهُ أَنْ يُصَلِّى. فَلَمَّا انْتَهَى " فَرُّوخُ " مِنْ صَلاتِهِ وَهَمَّ بِمُغَادَرَةِ الْمَسْجِدِ اسْتَوْقَفَتْهُ أَعْدَادٌ غَفِيرَةٌ مِنَ النَّاسِ يَجْلِسُونَ فِى بَاحَةِ الْمَسْجِدِ يَنْتَظِرُونَ أَحَدَ الْعُلَمَاءِ الْكِبَارِلِيُلْقِىَ عَلَيْهِمْ مُحَاضَرَةً.

جَلَسَ فَرُّوخُ فِى أَقْرَبِ مَكَانٍ اسْتَطَاعَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ، كَانَتِ الْوُجُوهُ تَبْتَسِمُ فِى شَغَفٍ وَهُمْ يَتَطَلَّعُونَ إِلَى ذَلِكَ الشَّيْخِ الَّذِى يَتَّجِهُ نَحْوَ كُرْسِيِّهِ..

وَتَكَلَّمَ الشَّيْخُ، فَاهْتَزَّتْ لِمَسَامِعِهِ الْقُلُوبُ، وَأَخَذَ طُلابُ الْعِلْمِ يُمْسِكُونَ بِأَقْلامِهِمْ وَيُسَجِّلُونَ مَا يَقُولُ. وَأُعْجِبَ فَرُّوخُ بِمَنْطِقِ الشَّيْخِ، وَحُجَّتِهِ الْقَوِيَّةِ الْبَالِغَةِ.. وَلُغَتِهِ السَّاحِرَةِ الَّتِى تُشْبِهُ حَبَّاتِ اللُّؤْلُؤِ.. وَهَذَا الْعِلْمِ الْغَزِيرِ الَّذِى يَتَدَفَّقُ مِنْ بَيْنَ ثَنَايَاهُ فِى سُهُولَةٍ وَيُسْرٍ.



وَكَانَتْ الْجُمُوعُ تَجْلِسُ فِى حَالَةٍ مِنَ السُّكُونِ التَّامِّ حَتَّى لا تَفُوتَهُمْ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ كَلامِ الشَّيْخِ. فَلَمَّا انْتَهَى الشَّيْخُ مِنْ مُحَاضَرَتِهِ، وَنَهَضَ قَائِمًا. تَزَاحَمَ النَّاسُ عَلَيْهِ، وَرَاحُوا يُصَافِحُونَهُ بِحَرَارَةٍ، وَيُقَبِّلُونَ جَبْهَتَهُ وَهُمْ فِى غَايَةِ السَّعَادَةِ وَالسُّرُورِ.

اتَّجَهَ فَرُّوخُ بِرَأْسِهِ نَحْوَ أَحَدِ الْجَالِسِينَ وَهَمَسَ قَائِلاً: أَكْرَمَكَ اللهُ يَا أَخِى، مَنْ الشَّيْخُ؟

رَفَعَ الرَّجُلُ حَاجِبَيْهِ دَهْشَةً، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ بِتَمَعُّنٍ وَارْتِيَابٍ قَائِلاً: وَهَلْ ثَمَّةَ أَحَدٌ لا يَعْرِفُ الشَّيْخَ، إِنَّ اسْمَهُ يَتَرَدَّدُ فِى الآفَاقِ.

هَزَّ فَرُّوخُ رَأْسَهُ قَائِلاً: مَا شَاءَ اللهُ.. قَالَ الرَّجُلُ: يَبْدُو أَنَّكَ غَرِيبٌ عَنْ الْمَدِينَةِ؟

قَالَ فَرُّوخٌ: لا، لا .. إِنَّنِى مِنْ سُكَّانِهَا.. بَيْدَ أَنَّنِى كُنْتُ فِى رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ وَلَمْ آتِ إِلاَّ اللَّيْلَةَ.

ابْتَسَمَ الرَّجُلُ وَقَالَ: لِهَذَا فَأَنْتَ لا تَعْرِفُ الشَّيْخَ، هَذَا يَا عَزِيزِى سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِ التَّابِعِينَ، وَعَلَمٌ مِنْ أَعْلامِ الْمُسْلِمِينَ، إِنَّهُ الْمُحَدِّثُ الْوَرِعُ، وَالْفَقِيهُ الإِمَامُ، الَّذِى يَضُمُّ مَجْلِسُهُ كَمَا رَأَيْتَ مَالِكَ ابْنَ أَنَسٍ، وَأَبَا حَنِيفَةَ النُّعْمَانَ، وَيَحْيَى بْنَ سَعِيدٍ وَسُفْيَانَ الثَّوْرِىَّ وَالأَوْزَاعِىَّ وَاللَّيْثَ بْنَ سَعْدٍ وَغَيْرَهُمْ.

هَذَا مِنْ أَكْرَمِ الْعَرَبِ، وَأَكْثَرِهِمْ جُودًا وَسَخَاءً.. هَذَا رَبِيعَةُ الرَّأْىِ بْنُ فَرُّوخ الْمُلَقَّبُ بِأَبِى عَبْدِ الرَّحْمَنِ.. خَرَجَ وَالِدُهُ لِلْجِهَادِ مُنْذُ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ وَلَمْ يَعُدْ إِلاَّ اللَّيْلَةَ. النَّاسُ يَقُولُونَ ذَلِكَ.

مَاكَادَتْ الْكَلِمَاتُ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ الرَّجُلِ حَتَّى كَادَ فَرُّوخُ أَنْ يُغْشَى عَلَيْهِ مِنْ فَرْطِ السَّعَادَةِ، حَتَّى أَنَّهُ فِى غَمْرَةِ فَرَحِهِ لَمْ يَشْعُرْ بِتِلْكَ الدَّمْعَاتِ الْبَارِدَةِ الَّتِى رَاحَتْ تَتَسَاقَطُ مِنْ عَيْنَيْهِ، وَهَذَا مَا أَثَارَ دَهْشَةَ الرَّجُلِ. وَلَمَّا حَاوَلَ أَنْ يَسْأَلَهُ عَنْ تِلْكَ الدُّمُوعِ الْمُتَسَاقِطَةِ كَانَ فَرُّوخُ قَدْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ، وَأَسْرَعَ الْخُطَى نَحْوَ بَيْتِهِ يَمْلَؤُهُ إِحْسَاسٌ بِالاعْتِزَازِ وَالْفَخْرِ بِأَنَّ هَذَا الْعَالِمَ الَّذِى يُشْبِهُ الْكَوْكَبَ الْمُضِىءَ هُوَ وَلَدُهُ. دَخَلَ عَلَى زَوْجَتِهِ، قَالَ لَهَا بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ:

وَاللهِ لَقَدْ أَذْهَلَنِي مَشْهَدٌ فِى غَايَةِ الرَّوْعَةِ يَا زَوْجَتِى الْعَزِيزَةَ.. وَالَّذِى لا إِلَهَ غَيْرُهُ لَوْ وُزِنَ بِكُلِّ كُنُوزِ الدُّنْيَا لَرَجَحَ.

قَالَتْ الزَّوْجَةُ: وَمَا ذَاكَ؟ ابْنُنَا رَبِيعَةُ بَلَغَ مَكَانَةً عَظِيمَةً فِى الْعِلْمِ حَتَّى إِنَّ كِبَارَ الْعُلَمَاءِ وَأَصْحَابَ الشَّأْنِ كَانُوا يَجْلِسُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَرْتَشِفُونَ الْعِلْمَ مِنْ بَيْنِ ثَنَايَاهُ. ابْتَسَمَتْ الزَّوْجَةُ وَقَالَتْ: أَرَأَيْتَ الثَّلاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ الَّتِى تَرَكْتَهَا عِنْدَ خُرُوجِكَ لِلْجِهَادِ. نَعَمْ... أُنْفِقَتْ جَمِيعُهَا عَلَى تَهْذِيبِ وَلَدِكَ وَتَأْدِيبِ حَتَّى صَارَ كَمَا رَأَيْتَ.. جَزَاكِ اللهُ خَيْرًا أَيَّتُهَا الزَّوْجَةُ الْعَزِيزَةُ، وَبَارَكَ فِيكِ. فَأَنْتِ . بِحَقٍّ. نِعْمَ الزَّوْجَةُ الْمُؤْمِنَةُ، وَنِعْمَ الأُمُّ الأَمِينَةُ.

اختبر معلوماتك

- كان التابعى الجليل سعيد بن المسيب فقهيا وله مواقف جريئة وذلك فى عهد...

أمير المؤمنين عثمان بن عفان
الخليفة عبد الملك بن مروان
الخليفة معاوية بن أبى سفيان

***

- أدرك التابعى سعيد بن جبير بعض أصحاب النبى ﷺ ولكن أستاذه الأكبر هو...

أبو سعيد الخدري
أبو هريرة
عبد الله بن عباس

***

- يعد عروة بن الزبير من أولئك الذين يضرب بهم المثل فى الكرم والصبر ومن أمثلة ذلك...

فقده أكبر أولاده وبتر ساقه
فقد بستان له كان يملكه
فقد منزلته فى العلم

***